المقتطف

الجزء الثاني عشر من السنة الثامنة عشرة

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٩٤ الموافق ١ ربيع اول سنة ١٣١٢

الكتب غذاء النفوس

" الكتب غذاء النفوس " عبارة وجيزة اللفظ كبيرة المعنى كتبها المصريون الاقدمون على باب اول دار جمعوا فيها الكتب وارسلوها بين الملا حكمة رائعة دلّوا بها على ان النفوس تجوع كالأبدان والعلوم والمعارف طعامها وشرابها . هذا سرّ نجاحهم في تلك العصور الخوالي وبه صارت مصر مقصدًا لفلاسفة اليونان يرحلون اليها في طلب العلم والحكمة من شاسع الاقطار. قال ديودورس المؤرخ بل انهم كتبوا على باب المكتبة الاولى " هنا طبُّ العقول " . وهو قول لا يقلُّ عن القول الاوفى بلاغةً والعلهم كتبوا القولين في جهتين مختلفتين

وغنيٌّ عن البيان ان العلم قوام العالم وعماد العمران وهو الكنز الثمين والذخر الذي لا يفنى وعليه المعتمد في تذليل الصعاب وتوفير الراحة والرفاهة لنوع الانسان . والعلماء الراسخون والحكماء المجرّبون قليل عددهم ولا يتيسر لكل احد ان يصل اليهم ويأخذ عنهم . وهم فانون كسائر ما في هذه الدنيا فاذا بقي علمهم في صدورهم ضاع ولم يستفد منهُ الا بعدون ولا الذين يأتون بعدهم الاَّ بالنقل والتواتر وهما مظنّة التحريف لذلك قيل كلُّ علم ليس في القرطاس ضاع وما بثتهُ الاقلام لا تستطيع على درسهِ الايام. وعظم المتقدمون والمتأخرون شأن الذين استنبطوا الكتابة والطباعة لنشر العلوم وحفظها وحسبوهم اكبر المتفضلين على نوع الانسان والموطدين لدعائم العمران

وقد وُضعت الكتب والجرائد ونخصُّ منها العلميَّ والادبيَّ لغايتين ساميتين الاولى حفظ العلوم والمعارف من النسيان والضياع ومن تطرُّق الخلل اليها اذا بقيت في صدور الحفّاظ او تداولها الناس خلفاً عن سلَف . فانك اذا القيت خطبة علميَّة على مئة نفس او قصصت عليهم خبرًا من الاخبار ثم سألتهم بعد ساعة عمَّا اخبرتهم لا ترى اثنين منهم يتفقان في كل ما يذكرانهِ . واذا نقلوا عنك ما اخبرتهم بهِ واذاعوهُ بين اقرانهم ثم استقصيتهُ بين الذين اخذوهُ عنهم رأيت انهُ تحرَّف على ضروب شتى والبستهُ عقولهم واميالهم حللاً لم تلبسهُ ايَّاها انت ولا خطرت على بالك حتى لقد ينقلب عن وضعهِ الاصلي وغايتهِ الاولى تمام الانقلاب . واذا مضى عليهِ شهر او سنة فقلَّ ان تجد لهُ الاَّ اثرًا طفيفاً في ذاكرتهم ولا سيما اذا كثرت شواغلهم ولم يكن حادثًا غريبًا في نفسهِ يؤثر في النفوس تأثيرًا عميقًا او لم يُنظَم شعرًا منسجمًا يحفظ سريعًا ويتغنَّى بهِ القوم خلفاً عن سلف . لذلك ترى ان طوائف الناس لم تتناقل زمانًا طويلاً الا الحوادث العظيمة كحادثة الطوفان والاخبار الَّتي نُظمت شعرًا كاخبار تروادة وحالما تيسر لهم حفظها في بطون القرطاس لم يتأخروا عن نقلها اليهِ . فالغاية الاولى من الكتب حفظ العلوم والمعارف من النسيان والتحريف

والغاية الثانية منها نشر العلوم وتعميم نفعها . قلنا ان العلماء قلال وقلَّ مَنْ يتيسر لهُ ان يأخذ عنهم مباشرةً فالكتب والجرائد العلميَّة الَّتي بمثابة الكتب تحمل علومهم ومعارفهم وتذيعها في الخافقين وتقرّبها من طلاَّبها دانية القطوف قريبة الجنى

والمرء يفخر ويتنافس اقرانهُ اذا لقي رجلاً من كبار العلماء وحادثهُ ساعة من الزمان لكنهُ يستطيع ان يقيم في دارهِ ويجلس في غرفتهِ ويحادث ابن سينا وابن رشد والغزالي والفارابي وارسطوطاليس وافلاطون ونيوتن وهرشل وده كارت وبسكال وليبنتز وهلمهلتز وفرنكلين وكنت وسبنسر وغيرهم من علماء المشرق والمغرب المتقدمين والمتأخرين ويسمع منهم لا حديثًا مبتذلاً يحادثون بهِ كل مَن جالسهم بل اقوالاً جمعوا فيها غاية ما بلغت اليهِ عقولهم من العلم والحكمة وما ارادوا ان يخلّدوا بهِ ذكرهم على مدى الادهار . بل يستطيع ان يحادث رعمسيس والاسكندر وقيصر وتيمور وبونابرت وكل القواد العظام الذين قادوا الجحافل ودوَّخوا الممالك ويسير معهم في غزواتهم ويرى عِددهم وجنودهم وحروبهم وإثخانهم في الاعداء ويقف بجانبهم تحت الاعلام والبنود ويرى تتويجهم بتيجان المجد والظفر . بل يستطيع ان يحادث الانبياء والشهداء والذين سنُّوا

الشرائع ووضعوا النواميس وبنيت لهم المناسك والمزارات تبرّكاً بهم وتعظيماً لقدرهم. بل ان يشاهد المسكونة كلها وهو في بيته ويرى عواصمها ومدنها وملوكها وملكاتها والاشكال اهلها وازياءهم ويسمع ما يقولون ويرى ما يكتبون . بل يرى اهل العصور الخالي الى خمسة آلاف عام ويطلع على اخبارهم واطوارهم كما لو ساكنهم وشافههم وعاشرهم . ذلك قريب ميسور لمن يطالع الكتب العلميّة والتاريخيّة بل لمن يطالع هذه الجريدة التي نزفها اليه في غرة كل شهر

قيل ارسل بعض الخلفاء يطلب احد العلماء ليسامره فلما جاءه الخادم وجده جالساً وحواليه الكتب وهو يطالع فيها فقال له ان امير المؤمنين يستدعيك فقال قل له عندي قوم من الحكماء احادثهم فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة واخبره بذلك قال له ويحك بين هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده قال والله يا امير المؤمنين ما كان عنده احد قال فاحضره الساعة كيف كان . فلما حضر قال له الخليفة من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك فقال

لنا جلساء ما نملّ حديثهم ... ألبّاء مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلتَ اموات فلم تعدُ امرهم ... وان قلت احياء فلست مفنّدا

وقد تكون هذه القصة موضوعة لكنّ مغزاها صحيح وهي تدلّ على اعتناء الاولين لكتب العلم والادب . ولا يخفى ان العلم ضرب اطنابه في بلاد المغرب في اوربا واميركا منذ مئة عام فاكثر وان العلماء والفلاسفة والحكماء والادباء والمخترعين والمستنبطين يكتبون علومهم ومعارفهم باللغات الاوربيّة ولا سبيل لنا الى الاطلاع عليها الا بتعلّم تلك اللغات او بترجمة تلك الكتب الى لغتنا العربيّة . والامران بعيدا المنال أمّا الاول فان استطاعه بعض الخاصّة فلا يستطيعه كلهم وقلما يستطيعه احد من العامة . واما الثاني فان نفقاته الكثيرة تحول دون الجري فيه على ما ينبغي ولا سيّما في العلوم الطبيعيّة التي تتغير كتبها كل بضع سنوات بحسب تقدّم العلوم واتساعها

والاوربيون انفسهم على كثرة المتعلمين منهم ورواج الكتب العلميّة عندهم رأوا ان لا بدّ لهم من انشاء جرائد علميّة تذيع المعارف بين الخاصة والعامة وتنشر اخبار العلماء وتحقيقاتهم حال حدوثها ليقف عليها الطلاّب في حينها وينتفع بها اهل الصناعة والزراعة . وقد اقتدينا بهم في ذلك منذ تسع عشرة سنة فانشأنا المقتطف واعتنينا اعتناء خاصاً بنشر

ما ليس في كتبنا العربيَّة لان الغرض الاول نشر العلوم الحديثة وايقاف الطلاَّب عَلَى ما لا يجدونهُ في الكتب ٱلَّتي بين ايديهم . فتجد في كل جزء منهُ شيئاً من نتائج ما حصَّلناهُ بالدرس والتدريس مدة سنين كثيرة وما حصَّلهُ اشهر علماء الارض في اسيا واوربا واميركا وما كتبوهُ وخلَّدوا بهِ ذكرهم في اشهر الكتب والجرائد العلميَّة . فبعضهُ ثمرات درسنا بعد ان قرنَّا العلم بالعمل بضع عشرة سنة واكثرهُ ثمرات عقول الفلاسفة العظام والعلماء الفخام الذين اوصلوا العمران الى درجتهِ الحاضرة وهم الذين نعتمد عليهم في شرح القضايا العلميَّة وتحقيق المسائل التاريخيَّة وفي اكثر ما نطرقهُ من سبل البحث والتنقيب . وهذا يجب ان يكون شأن كل كتاب يعرضهُ مؤلفهُ لانتقاد العقول مدى الادهار . لا نقول ذلك تعظيماً لشأن المقتطف بل اظهاراً للحقيقة ٱلَّتي لا مراء فيها وهي اننا نبذل في انشائهِ غاية ما يُبذَل في انشاء الجرائد الاوربيَّة ٱلَّتي من نوعهِ ونجمع فيهِ زبدة ما ينشر في كثير منها

ومن يطالع المقتطف وهو جالس في بيتهِ وبين اهلهِ يجد فيهِ مقالات غلادستون التاريخيَّة ثمرة ذلك العقل العظيم الذي يدير الممالك كما يدير الربَّان السفينة وقد افرغ فيها نتائج درسهِ وبحثهِ مدة سبعين عاماً . ومقالات سبنسر الفيلسوف الكبير الذي اجمع فلاسفة هذا العصر على انهُ زعيمهم ورئيسهم . ويجد فصولاً كثيرة من انشاء برتلو الكيماوي الفرنسوي وغيكي الجيولوجي الانكليزي وورخوف الطبيب الالماني وشبارلي الفلكي الايطالي وبكنه الطبيعي السويسري ومارش البلنتولوجي الاميركي وغيرهم من اشهر علماء الارض مثل كلفن وهكسلي وتندل ولبك وريلي ولكير ومكس ملر وسدجوك وسايس وبتري وبريس وولس وروشار وجنه ورنان وفلامريون وماري وهرز ووسمن . ومن انشاء اكثر الذين امتازوا بالعلم والعرفان بين ظهرانينا . وان كان لهُ مزيَّة او فائدة فيكون بما تثبتهُ فيهِ من اقوال هؤلاء العلماء وتحقيقاتهم

هذا هو الكتاب الذي نزفهُ الى القراء الكرام في غرة كل شهر مقابل ما ينقدوننا اياهُ من المال الذي نستعين بهِ على جمع موادهِ وطبعها ونشرها . وغاية ما نطلبهُ منهم امران

الاول ان يوفوا المقتطف حقهُ من المطالعة والتروي . فان الرغبة في المطالعة من اكبر النعم ٱلَّتي خصَّ بها نوع الانسان . قال هرشل الفلكي الشهير " انني اذا طلبت من الله ما يبقى معي في السراء والضراء جنةً في الافراح وملاذّاً من الاتراح فذلك هو

الرغبة في المطالعة فاذا أُعطي المرء هذه الرغبة ووجد الكتب المفيدة فهو سعيد لا محالة"

والمطالعة البسيطة لا تغني عن الدرس والتدقيق بل الإكثار منها من غير تدقيق وترو يسقم العقل ويضعف الذاكرة . فترى من يطالع كتاباً كاملاً في يومه ينسى في اليوم التالي ولا يستفيد منهُ شيئاً. يُذكَر عن الفارابي الفيلسوف الشهير انهُ قال "قرأت كتاب السماع لارسطو اربعين مرةً وأرى اني محتاج الى معاودته" . وعن ابن سينا الطبيب الشهير انهُ قال " قرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيهِ والتبس عليَّ غرض واضعهِ ثم اعدت قراءتهُ اربعين مرة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمهُ ويئست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمهِ واذا انهُ يوماً حضرت وقت العصر في سوق الوراقين وبيد دلاَّل مجلَّد ينادي عليهِ فعرضهُ عليَّ فرددتهُ رد متبرم بهِ معتقداً ان لا فائدة في هذا العلم فقال لي باشتر مني هذا الكتاب فانهُ رخيص ابيعكهُ بثلاثة دراهم وصاحبهُ محتاج الى ثمنهِ فاشتريتهُ فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فرجعت الى بيتي واسرعت الى قراءتهِ فانفتح عليَّ في الوقت ما تضمن ذلك الكتاب بسبب انهُ قد صار على ظهر القلب" . وقال واصفاً كيفيَّة انكبابهِ على الدرس " كنت ارجع بالليل الى داري واضع السراج بين يديَّ واشتغل بالقراءة والكتابة حتى اذا غلبني النوم او شعرت بضعف عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود اليَّ قوتي ومتى اخذني النوم احلم بتلك المسائل باعيانها حتى ان كثيراً منها انفتح عليَّ وجوهها في المنام" . وانما تجد احداً استفاد ممَّا قرأهُ الاَّ اذا قرأهُ بالتأني والتروي ومعمل الفكر لذلك لا يرجى من المقتطف كبير فائدة ولا سيما من مقالاتهِ العلميَّة والفلسفية الاَّ اذا أُمعن النظر فيها

والامر الثاني الذي نطلبهُ من القرَّاء الكرام هو ان يرغبوا افرادهم واعضاء هيئاتهم في مطالعتهِ فانهُ اذا كثر قرَّاؤهُ سهل علينا ان نكثر موادهُ ونزيدهُ اتقاناً ما يقتضيهِ ذلك من زيادة النفقات . وقد عقدنا النيَّة على ان نزيدهُ اتقاناً في السنة المقبلة ونضيف اليهِ باباً يصير بهِ تاريخاً عاماً لكل الحوادث الشهيرة الَّتي تحدث في المسكونة وهذا الجزء مثال لما سيكون عليهِ بعد الآن فعسى ان يرضى القراء الكرام بعملنا ويساعدونا في تعميم فوائدهِ . والله نسأل ان يعصم اقلامنا ويرشدنا الى ما بهِ النفع في الحال والمآل